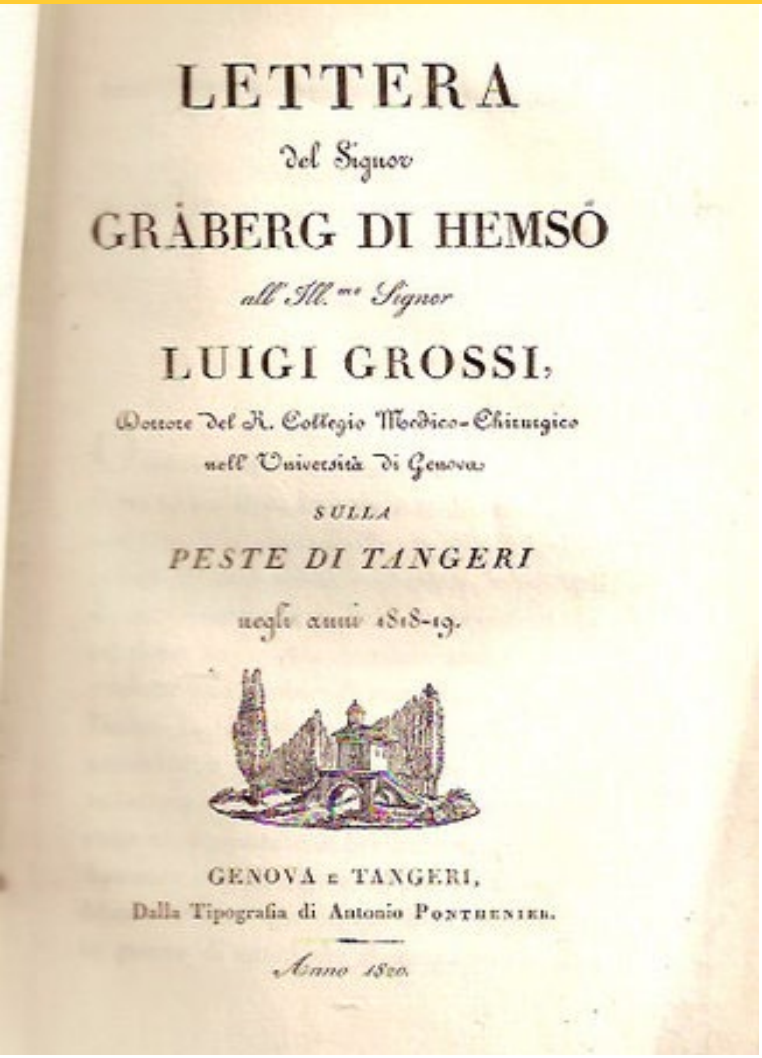
LETTERA
Del Signor
GRÄBERG DI HEMSÖ
all'Ill.mo Signor
LUIGI GROSSI,
Dottore del R. Collegio Medico-Chirurgico
nell'Università di Genova
SULLA
PESTE DI TANGERI
negli anni 1818-19.
GENOVA e TANGERI,
Dalla Tipografia di Antonio Ponthenier.
Anno 1820.

المغرب في مواجهة الوباء: طاعون 1818م

فؤاد العبودي[1]، علال ركوك[2]

[1]المستشفى الجامعي الرازي للأمراض النفسية سلا ، كلية الطب و الصيدلة، جامعة محمد الخامس، الرباط
[2]المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط

مقدمة

يعتبر الطاعون من الأمراض المعدية القاتلة التي تسببها يرسينية طاعونية، الذي سميت على اسم عالم البكتيريا الفرنسي السويسري"الكسندر يرسين" الذي اكتشفه سنة 1894م[1] . تنتقل العدوى إلى الإنسان بواسطة الفئران، عن طريق البراغيث المصابة. تسبب الطاعون في حالة من الفوضى في العالم، خصوصا خلال العصور الوسطى[2]، مما أثر على الاقتصاد، الدين والفنون خلال تلك الفترة.

المغرب، مثل العديد من البلدان، كان هدفا للطاعون مرات عديدة في تاريخه[3]، من أخطرها طاعون 1818م.

يستهدف بحثنا هذا وصف مراحل انتشار الطاعون و تبيان سياسة المغرب في مواجهة هذا الوباء أوائل القرن19 والعواقب التي تولدت عن ذلك.

حالة المغرب السياسية بداية القرن 19

تولى المولى سليمان الحكمفي المغرب حوالي 1792م خلفا لوالده سيدي محمد بن عبد الله، على الرغم من احتجاج العديد من إخوته[4] .

وقد تميزت فترة حكمه بحالة من عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي والعديد من الثورات خصوصا منطرف الزوايا، رغم محاولاته الإصلاحية المستوحاة من الإصلاح الوهابي في المشرق[5].

أهم تلك الثورات كانت سنة 1818 م حيث هزم السلطان من قبل ائتلاف قبائل صنهاجة، زمور وزناتة بالأطلس المتوسط تحت قيادة أبو بكر أمهاوش زعيم آيت سيدي علي[6].

كل هاته الظروف دفعت المولى سليمان إلى التخلي عن الحكم لصالح ابن شقيقه، مولاي هشام بن عبد الرحمن سنة 1822م.

المغرب والآفات

من الصعب[7] الضبط التام لتاريخ الأوبئة في المغرب، خصوصا و أن مصطلحات الوباء و الطاعون في الكتابات التاريخية ليس لديها معنى دقيق و متداخلة الاستعمال[8]، حيث أنها ترمز في كثير من الحالات إلى الطاعون و الكوليرا أيضا. بالتالي يصعب جدا أن نعرف العدد الدقيق للأوبئة الطاعون في المغرب منذ استخدم المؤرخون مصطلح الوباء لتعيين أي مرض معد ميت[9].

ومع ذلك، يبدو أن وباء الطاعون الأول وقع في 742 م وكان قد استمر

أكثر من سبع سنوات في المغرب[10].

المراكشي في كتابه "البيان المغرب"[11] يخبرنا بأن عدة أوبئة قد وقعت في 873 م، 900 م، 919 م، 929 م، 955 م، 989 م، 1004 م، 1175 م، 1220 م، و1237 م. يفيدنا أيضا أن المغرب شهد عددا كبيرا من الوفيات خلال هاته السنوات بسبب الطواعين.

في العام 1348 م، عرف المغرب الطاعون الشهير المسمى "الطاعون الأسود" الذي اجتاح أيضا أوروبا خلال تلك الفترة[12].

نحو نهاية القرن ال16 م عرف المغرب الطاعون مرة أخرى في أعقاب الغزو البرتغاليللساحل المغربي كما يتضح من الرسالة التي بعثها السلطان أحمد المنصور الذهبيإلى ابنه في مراكش،محملا إياه بعض التوصيات بشأن الوباء. أول شيء نصحه به هو مغادرة المدينة في أقرب وقت ممكن و أوصاه بالتحرك باستمرار، دون البقاء أكثر من يومين على التوالي في نفس المكان.

كما أوصاه باستخدام العلاجات بمجرد شعورهبأدنى طارئ صحي، وأن لا تفتح الرسائل قبل أن تنقع في خل قوي وأن تجفيف في حرارة الشمس[13].

الزياني في "الترجمانة الكبرى" يفيد أن المغرب شهد عام 1752 م المرض الرهيب.

في 1782 م، 1791 م وعام 1799م، عاد الطاعونإلى الظهور في طنجة، متنقلا عبر الحجاج المغاربة القادمين من مكة المكرمة.

الحوليات المغربية لم تنقل أي حالة وفاة من المشاهير بسبب الوباء أو الطاعون بعد 1802 م في المدن الكبرى[14]، باستثناء الفقيه محمد بن أحمد بنعجيبة الذين توفي بسبب الطاعون في عام 1812 م في تطوان.

طاعون 1818

البداية

طاعون 1818 وجد في شخص نائب قنصل السويد والنرويج جربراوف هامس[15]، مؤرخا له. هذا الطاعون كان نتيجة العدوى عن طريق النقل البحري القادم من الشرقكما في عام 1799 م[16]. في حين ان الطواعين السابقة كانت تتسرب الى المغرب عن طريق الجزائر[17].

انطلاقا من طاعون سنة 1799 م نفد المغرب نظام الوقاية في الموانئ[18]. وعزز هذا القرار اثر ظهو روباء الطاعون في الجزائر سنة 1817م باجتماع عقده القناصل الاجانب في طنجة والذي أسفر عن عدة توصيات بما في ذلك تعيين طبيب مفتش فرنسي في ميناء طنجة لتعزيز الرقابة الصحية في المغرب[19].

في 22 مايو 1818، وصلت الفرقاطة الفرنسية "LE TAGE" طنجة قادمة من الإسكندرية[20] وعلى متنها الحجاج المغاربة القادمون من مكة المكرمة[21]. حمال أمتعه كان أول من توفي في 25 مايو[22]. كان هذا هو السبب الرئيسي لدخول وباء الطاعون الى المغرب[23]. وما زاد الوضع خطورة دخول المركب "AVON" في28 يونيو مع 430 حاجا دونما حجر صحي على الركاب[24].

مراحل الطاعون

يوم 18 يونيو، أعلن وباء الطاعون رسميا من قبل القنصل الإسباني في طنجة[25]. كان شهر واحد يكفي للطاعون لكي ينتشر في كل طنجة[26]. وفقا لجربر اوف هامسو[27] يمكن تقسيم طاعون 1818 إلى أربع فترات مختلفة[28] :

الأولى وهي فترة الغزو - حتى بداية سبتمبر 1818: من 25 مايو إلى 30 يونيو توفي 31 شخصا. في شهر يوليو كانت الوفيات بمعدل 4-7 أشخاص كل يوم.في شهر غشت، بلغ العدد اليومي للوفيات 9 إلى 11 أشخاص يوميا. الحصيلة هي 312 حالة وفاة خلال الفترة الأولى.

الفترة التانية - فترة الذروة ابتداءا من 8 سبتمبر: الوفيات المسجلة في طنجة كانت267 حالة لهذا الشهر. في شهر أكتوبر كانت هناك 479 حالة وفاة. لكن ذروة الوباء كانت في شهر نوفمبر وهي 576 حالة وفاة.

الفترة الثالثة هي فترة الانخفاض: في النصف الأول من شهر ديسمبر كانت هناك 200 حالة وفاة. والمجموع 328 حالة وفاة خلال شهر ديسمبر كاملا. وانخفض عدد الوفيات إلى في شهر فبراير ليصبح المجموع 408 حالة وفاة خلال كامل الفترة الثالثة.

الفترة الرابعة هي فترة الانقراض: خلال شهر مارس، كانت هناك 42 حالة وفاة. زاد الانخفاض في شهور أبريل و ماي[29]. لكن الطاعون كان قد انتشر في كل أجزاء المغرب. وكان الانتشار من الشمال إلى الجنوب. حيث أنه بعد طنجة ومنطقتها، غزا الطاعون جميع البيئات الحضرية والريفية[30 31].

السياسة الصحية

التدابير المتخذة

على المستوى المركزي: في واقع الأمر ليتم تطبيق أي سياسة مركزية في مكافحة وباء الطاعون، باستثناء الحجر الصحي وجزئيا فقط.

خلال هذا الوباء كان دور القناصل الأجانب في طنجة مهما جداحيث أن القناصل طلبوامن جبل طارق أو قادش طبيبا ماهرا لمجابهة الوباء. لكن لم يتمكن أي طبيب من القدوم بعد إلغاء حركة النقل البحري مع شبه الجزيرة الايبيرية[32]. باستثناءالطبيب الاسباني SOLA الممارس بقادش و الذي كان متواجدا بالمغرب أكد في غشت 1818م أن هذا الوباء هو الطاعون[33].

في الواقع لم يستفد المغرب من تطور الطب الحديث في أوروبا في هذا الوقت كما فعل على استحياء في الميدان العسكري[34].

على مستوى الأطباء: كان الأطباء المغاربة في تلك الفترة يدركون أن العزل هي أفضل طريقة لتجنب انتشار الوباء، و أوصوا كذلك بتعريض الأشياء لأشعة الشمس لتدمير الجراثيم. لكن الأبحاث العلمية في وقت لاحق أثبتت أن عصية يرسينليست مقاومة للحرارة.

وأوضح رينو أن ثبت انتقال العدوى بالنسبة للأطباء كان معلوما ولكن طبيعة و أسباب المرض كان لا يزال مجهولا. علاوة على ذلك لم يكن هنالك أي طبيب يعتد به في مدينة طنجة[35].

الدكتور صولا[36] SOLA أوصى باستعمال زيت الزيتون والتدابير الوقائية كتجنب الاحتكاك بالمرضى والغسيل بالماء والخل و حتى بالتلقيح. مع العلم أن العلاج بالزيت ممارسة قديمة في أوروبا كما في المغرب.

على مستوى العلماء: كان سلوك العلماء المغاربة تجاه الطاعون مماثلا لعلماء الدول الإسلامية[37]. المرضى الذين توفوا بالطاعون اعتبروا دائما شهداء في الدين الإسلامي .كما اوصي الناس بالتحلي بالصبر وانتظارالفرج[38] و اتخاد الاحتياطيات[39].

يحظر الدين الاسلامي أيضا. في حالة الطاعون أوالوباء الدخول أو مغادرة المنطقة التي انتشر فيها[40]. وعلى الرغم من هذا الموقف. نشأت دائما أصوات بين العلماء للبحث عن حلول حقيقية للطاعون[41]. حيث اختار البعض الوقاية من العدوى و حتى الفرار من المناطق الموبوءة[42] من بينها هو محمد بن أبي قاسم الفيلالي (المتوفى في 1818 م قبل الطاعون) الذي أكد على التدابير الوقائية من الطاعون[43]. البعض من السكان لم يعتقد أصلا في التفسيرات الدينية مفضلا اللجوء إلى السحر والخرافات.

الى جانب ذلك كانت كان هناك مواقف لعلماء مغاربة معارضة للتدابير الوقائية الموصى بها من المجلس الصحي بطنجة مثل الحجر الصحي. خصوصا مع الضغوط الاستعمارية الأوربية على المغرب خلال القرن 19 والتدخلات المتزايدة في القطاع الصحي و استخدام مراكز الرعاية الصحية كوسيلة للتسلل السلمي الى المغرب[44].

على مستوى السكان: أثر الطاعون بشكل كبير على الفكر المغربي في ذلك الوقت بتطوير أنواع جديدة من الأدب كأدب الكرنتينةأو الحجر الصحي بالاضافة الى أدبيات الطواعين[45]. ساد الاعتقاد لدى بعض المغاربة أن الطاعون عقوبة الاهية[46] بسبب علاقات المغرب مع الدول الأوروبية[47] وقمع الجهاد البحري.

استخدام طاعون 1818م أيضا من طرف الزوايا خصوصا الزاوية الدرقاوية للتمرد ضد مولاي سليمان[48].

نتائج طاعون

تسبب طاعون 1818 م في العديد من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية الهامة. حيث أن الأزمة الديموغرافية في المغرب. بعد الطاعون كانت عميقة لم يسبق لها مثيل[49] : حيث كانت الوفياة تقارب 2000 حالة في طنجة. و 566 في فاس. و 1560 في الرباط. بالاضافة إلى ما يقرب من ربع السكانفي تادلة[50]. كما أن الطاعون ضرب أجيالا بلا استثناء. كما اختفت قبائل بأكملها بسبب طاعون 1818م.

على المستوى السياسي كان طاعون 1818 م وخيم العواقب الاجتماعية. الديموغرافية. الاجتماعية والاقتصادية بحالة عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي التي نشأت عنه مما أدى إلى المزيد من حركات التمرد كان أخطرها تمرد أبو بكر أمهاوش[51] سنة 1818 حيث استمر هذا المناخ حتى نهاية عهد السلطان مولاي سليمان[52] في عام 1822 م.

على المستوى الاجتماعي والاقتصادي. مع انخفاض عدد السكان حرم الاقتصاد المغربي من العديد المنتجين والمستهلكين مما زاد في أزمته.

كما أن الزيادة الكبيرة في الأسعار مع المجاعة الكبرى في عام 1819 م دفعت العديد من السكان الى أكل النباتات و حتى الجيفة[53] و دفعت العديد من القبائل الى التخلي عن قراهم[54] و الهجرة[55] كقبائل الحوز. دكالة. عبدة والغرب[56].

خاتمة

من الصعب الضبط التام لنتائج طاعون في المغرب 1818 م لتباين نتائجه السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية. حيت البحت في تاريخ الطواعين في المغرب عامة و طاعون 1818 م خاصة يواجه صعوبة كبيرة من حيث قلة المصادر الأرشيفية الخاصة بالموضوع.

مواقف العلماء المغاربة المعارضة للتدابير الوقائية الموصى بها قناصل طنجة. خصوصا مع الضغوط الاستعمارية الأوربية على المغرب خلال القرن 19جديرة بالدراسة على اعتبار الرعاية الصحية كانت وسيلة من وسائل التغلغل السلمي للمغرب.

لكن الأكيد أن طواعين نهاية القرن 18 و بداية القرن 19 أثرت و لعقود طويلة على المغرب حتى فرض الحماية في 1912م.

المراجع:

1. Robert D. Perry, Jacqueline D. Fetherston, Yersinia pestis-Etiologic Agent of Plague, clinicalmicrobiologyreviews, Jan. 1997, p. 35–66
2. Elisabeth Carpentier, Autour de la peste noire : famines et épidémies dans l'histoire du XIVe siècle, Annales. Économies, Sociétés, Civilisations. 17e année, N. 6, 1962. pp. 1062-1092.
3. Akhmisse Mustapha, histoire de la médecine au Maroc (des origines au protectorat), Rabat, sans date, pp : 87-88
4. Az-zyani, le Maroc de 1631à 1812, Traduction O. Houdas, p : 170
5. Mohamed Tozy, L'évolution du champ religieux marocain au défi de la mondialisation, Revue internationale de politique comparée 2009/1, (Vol. 16), p : 63-81
6. إبراهيم حركات. المغرب عبر التاريخ. الجزء 3. دار الرشاد الحديثة. 1994. ص: 140-141
7. Akhmisse Mustapha, histoire de la médecine au Maroc (des origines au protectorat), Rabat, sans date, pp : 87-88
8. برنار روزنبرغ. حميد التريكي. الأوبئة و المجاعات في القرنين 16و17. 2011. دار الأمان. ص: 15
9. Raynaud.L, Étude sur l'hygiène et la médecine au Maroc, Alger 1902, p : 83
10. Akhmisse Mustapha, histoire de la médecine au Maroc (des origines au protectorat), Rabat, sans date, p : 87
11. ابن عذاري المراكشي البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب. دار الثقافة. الدار البيضاء. 1985
12. Yassir Benhima, « Epidémies et mouvements de populations au Maroc (XIVe-XVIe siècle), Actes de la XLI settimana di studiFondazioneDatini : Le interazioni fra economia e ambiente biologico nell'Europapreindustriale, Florence, 2010, p. 279-285.
13. أحمد بن خالد الناصري.الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. وزارة الاتصال. الجزء 5. ص: 193-194
14. Renaud H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Hespéris, Volume 3, 1923p: 15
15. Renaud H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Hespéris, Volume 3, 1923p:13
16. Renaud H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Hespéris, Tome I, 1921, 2ème trimestre, p : 160-182

17. Renaud H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Hespéris, Volume 3, 1923p: 14
18. Raynaud .L, Etude sur l'hygiène et la médecine au Marco suivie d'une notice sur la climatologie des principales villes de l'empire, Alger, 1902, p : 82
19. محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة و المجاعات القرن 18و19، كلية الآداب و العلوم الانسانية الرباط،1992، رقم : 18، ص: 105
20. أحمد بن خالد الناصري،الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، وزارة الاتصال، الجزء 7، ص:172
21. Renaud H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Hespéris, Volume 3, 1923p:15
22. Renaud H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Hespéris, Volume 3, 1923, p : 15
23. الزياني، الروضة السليمانية، مخطوط بمؤسسة مكتبة الملك عبد العزيز الدار البيضاء، ص: 259
24. RENAUD H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Hespéris, Volume 3, 1923, p : 17
25. Renaud H.P.J, Recherches historiques sur les épidémies du Maroc, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Volume 3, 1923, p : 18
26. محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة و المجاعات القرن 18و19، كلية الآداب و العلوم الانسانية الرباط، 1992 رقم : 18، ص:110
27. Renaud H.P.J, Recherches historiques sur les épidémies du Maroc, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Volume 3, 1923, p : 18
28. Renaud H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, 20-Hespéris, Volume 3, 1923, pp 18
29. Renaud H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, 20-HESPERIS, Volume 3, 1923, p : 18
30. محمد بن أحمد اكنسوس، الجيش العرمرم الخماسي في دولة مولانا علي السجلماسي، 1994، الجزء 1، ص: 303
31. Renaud H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Hespéris, Volume 3, 1923, p : 21
32. Renaud H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Hespéris, Volume 3, 1923, p : 25
33. Renaud H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Hespéris, Volume 3, 1923, p : 25
34. إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الجزء3، دار الرشاد الحديثة، 1994، ص: 157
35. Renaud H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Hespéris, Volume 3, 1923, p : 25
36. Renaud H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, Hespéris, Volume 3, 1923, p : 25
37. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الجزء 10، دار الكتب العلمية، لبنان، 1989، ص: 221
38. ابنحجرالعسقلاني،فتحالباريفيشرحصحيحالبخاري،الجزء10،دارالكتبالعلمية،لبنان، 1989،ص: 236
39. برنار روزنبرغ، حميد التريكي، الأوبئة و المجاعات في القرنين 16و17، 2011، دار الأمان، ص: 198
40. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الجزء 10، دار الكتب العلمية، لبنان، 1989، ص : 220-221
41. محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة و المجاعات القرن 18و19، كلية الآداب و العلوم الإنسانية الرباط، 1992 رقم : 18، ص: 395
42. محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة و المجاعات القرن 18و19، كلية الآداب و العلوم الانسانية الرباط، 1992 رقم : 18، ص: 395
43. Almansour Mohamed, La position des oulémas du Maroc contre les épidémies et les mesures de santé préventives, Les connaissances médicales et l'histoire des maladie au Maghreb, Sous la direction de AssiaBenadada 2011, p : 107
44. Almansour Mohamed, La position des oulémas du Maroc contre les épidémies et les mesures de santé préventives, Les connaissances médicales et l'histoire des maladie au Maghreb, Sous la direction de AssiaBenadada 2011, p : 108
45. محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة و المجاعات القرن 18و19، كلية الآداب و العلوم الانسانية الرباط، 1992 رقم : 18، ص: 387
46. محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة و المجاعات القرن 18و19، كلية الآداب و العلوم الانسانية الرباط، 1992 رقم : 18، ص: 133
47. RENAUD H. P. J, La peste de 1818 d'après des documents inédits, HESPERIS, Volume 3, 1923, p: 22
48. محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة و المجاعات القرن 18و19، كلية الآداب و العلوم الانسانية الرباط، 1992 رقم : 18، ص: 137
49. أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن 19، 1983، ص: 191
50. المصطفى بوشعراء، الاستيطان و الحماية في المغرب، الجزء 1، ص: 158
51. أحمد بن خالد الناصري،الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، وزارة الاتصال، الجزء 7، ص:172
52. 144: أحمد بن خالد الناصري،الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، وزارة الاتصال، الجزء 7، ص
53. المصطفى بوشعراء، الاستيطان و الحماية في المغرب، الجزء 1،1984 ، ص: 158
54. محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة و المجاعات القرن 18و19، كلية الآداب و العلوم الانسانية الرباط، 1992 رقم : 125
55. محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة و المجاعات القرن 18و19، كلية الآداب و العلوم الانسانية الرباط، 1992 رقم : 127
56. المصطفى بوشعراء، الاستيطان و الحماية في المغرب، الجزء 1،1984 ، ص: 158

موقع مخطوطات ويلكوم العربية المتاحة على الإنترنت. http://wamcp.bibalex.org